الفصل الرابع

الفينيقيون وعلم الجغرافيا

سبق وأن تحدثنا عن دور حضارتين عظيمتين لكل من مصر وبلاد النهرين (بابل) في علم الجغرافية. والآن نريد أن نتكلم عن مكانة الحضارة الفينيقية في ميدان علم الجغرافية علما أن الفينيقيين لم يكن لهم حضارة بالمعنى المعروف، لأنهم ركزوا مجهوداتهم كلها على النواحي التجارية.

الفينيقيون أمة لها سمعة جيدة جدا في الحركة التجارية لذا كان لهم باع طويل في المسالك البرية والبحرية فجابوا شواطىء البحر المتوسط وغيرها سعيا وراء تسويق سلعهم التجارية. كما أن البلدان التي قطنها الفينيقيون تعتبر همزة الوصل بين الشرق والغرب (مصر وبابل).

يذكر شريف محمد شريف في كتابه (تطور الفكر الجغرافي) أن الفينيقيين أمة تجارية بحرية استقرت أساسا على ساحل الليفانت منذ أقدم العصور، فقد احتلت من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط شريطا ضيقا مطابقا بالتقريب لما هو اليوم موقع (لبنان) وكان حينذاك يعرف باسم فينيقيا. والفينيقيون في الأصل هجرات سامية يرى بعض المؤلفين أنها جاءت أصلا من بابل، ويرى البعض الآخر أنها من منطقة الخليج العربي. على كل حال ليس هناك اختلاف كبير لمن ينتمون، فهم من أصل عربي سواء كانوا من بلاد النهرين أو الخليج العربي.

ويستمر شريف محمد شريف في حديثه عن المسالك التي اتبعها الفينيقيون في نقل تجارتهم من الشرق إلى الغرب، فيقول (كان من الميسر إلى حد ما الانتقال من بابل إلى مصر بالاتجاه شمالا على طول وادي الفرات ثم الهبوط إلى وادي نهر العاصي بين سلسلتي جبال (لبنان) الداخلية و(لبنان) الساحلية، ثم الانحدار

إلى سهل (الليطاني) أو البقاع إلى أعالي الأردن ثم يسهل بعد ذلك اختراق الأرض (فلسطين) على طول امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى يفضي ذلك إلى الشريط الصحراوي المؤدي إلى أرض مصر).

والحقيقة التاريخية الواضحة أنه لم يشهد للفينيقيين بدور في العلوم التجريبية أو العلوم الفلسفية، بل كانت شهرتهم قائمة على أعمالهم التجارية، كما أن مواقفهم العسكرية والسياسية ضعيفة جدا إذا ماقورنت بما قام به قدماء المصريين والبابليون.

والمتواتر أن الفينيقيين يكرهون الحروب في جميع أشكالها فمثلا عندما تحدث بعض المناوشات بسبب الحركة التجارية بينهم وبين أي شعب آخر، يضطرون إلى ترك البلد الذي حصل فيه النزاع التجاري لمنافسيهم معتقدين أن البيع والشراء فيهما متسع للجميع ولا داعي للنزاع والقتال من أجلهما.

تفنن الفينيقيون في الملاحة فصار عندهم أسطول عظيم في كل من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومدخل المحيط الأطلنطي، لذا اتسعت رقعة التجارة مع العالم الخارجي في أفريقية وآسيا. كما ذاع صيتهم في اقتحامهم عباب البحار والأنهار والمحيطات دون خوف أو تردد.

مما تقدم يظهر أن الفينيقيين عرفوا الطرق المختلفة بين بلدان أفريقية وآسيا، ولكنهم للأسف الشديد لم يسجلوا ذلك على خرائط يمكن الاستفادة منها بل كانوا يرون أن هذا سر ويجب الاحتفاظ به لأنفسهم.

وأضاف شريف محمد شريف في كتابه الآنف الذكر أن الفينيقيين احتفظوا بأسرار الطرق التجارية، والمعارف الجغرافية، حرصا على مصادر بضائعهم ومنابع ثروتهم ورخائهم، حتى تظل التجارة دائما في أيديهم دون منازع، وكان الملاحون الفينيقيون يؤثرون الموت على أن يفضوا بأي من أسرار الطرق التجارية في البحار.

اتخذ الفينيقيون (Phoenisans) مراكز تجارية لهم في كل من قبرص وصقلية وقرطاجة وغيرها. ووصلوا السنغال وبلاد فارس والهند وشمال الهند وشمال أوروبا، بحثا وراء تسويق سلعهم التجارية، لأنهم ينظرون إلى الحرف الأخرى بعين الاحتقار، فيرون أن الزراعة والصناعة من حرف المستخدمين. نعم إن

الفينيقيين أمة متفرقة ولم تصنع حضارة علمية، لأن التجارة شغلتهم عن ذلك ولكن الثابت أن رحلاتهم المتكررة برا وبحرا أكسبتهم معارف جغرافية جمة.

ومما لاشك فيه أن الفينيقيين ألموا إلماما تاما بجميع أرجاء العالم القديم فذللوا بعض الصعوبات في شق وتحديد الطرق التي استخدموها، ولكن المؤرخين يأخذون عليهم أنهم لم يعيروا أي اهتمام لرسم الخرائط لتبيان المسالك التي سلكوها في نقل تجارتهم لبلدان العالم القديم، حتى تكون تراثا لهم فيكونوا خير سلف لخير خلف.

فالاتجاه السياسي الذي تبناه الفينيقيون أعطاهم فرصة التجول في مياه البحار والأنهار والمحيطات شرقية كانت أم غربية دون منازع. لذا تبلورت لديهم معارف جغرافية فريدة عن العالم القديم، ولكن شدة حرصهم على الاحتفاظ بسرية مواقع مصادر تجارتهم، جعلت الاستفادة من معلوماتهم الجغرافية محدودة للغاية.